التحولات المجتمعية وجدلية الثقافة والقيم (1 من 2)

إننا في زمان تبدو فيه الثقافة نائية عن مشهد الحياة التي نستحق أن تكون كريمة وسمحة وعادلة

نعيش لحظة المد الامريكي الذي ينبعث على شكل روما جديدة تريد العالم ولايات تدور في فلكها

خالد الكركي*

إضاءة (1) . مدخل

هذا موضوع في الأمة والهوية، والأمة والتراث، والأمة والحريّة، بل في الوجود القومي، وفي صلة هذا الوجود بالعقيدة.. وفيه إشارات وعلامات على أسئلة تفصيلية ذات صلة بالثقافة التي تشكّلت من حضور الأمة، وحضارتها، وحربها، وسلامها، وغنائها، وحزنها، ومنذ أن شكل البيت العتيق مواسمها الدينية الأولى، إلى أن بكى الطلل أوجاع فتيتها، وتحوّل تراب وادي عذرة إلى لون دماء عشاّقها، وصار المربد أفقها الخطابي، والحرية عدو حاكمها المستبد، والفقيه حليف سلطانها العتيد.

المصطلحان الرئيسيان في هذا الباب هما «الأمة» و«الثقافة»، ولستُ بصدد الخوض في أدبيات الحوار حولهما أو في تعريفاتهما، فالأمة هي الجماعة، والعرب أمة، وهم في إطار الإسلام جزء من أمة الإسلام، ولعلّ الإحالة على ما كتبه عصمت سيف الدولة، وعبد العزيز الدوري، على سبيل المثال، يسعف في إضاءة المصطلح ودلالته بصورة أكاديمية رفيعة.

أما الثقافة التي تتشكل في الفرد والجماعة ضمن إطار الأمة الواحدة، وتحدّد هويته الوطنية والقومية والدينية، فهي أيضاً موضع حوار وجدل، وتعريفات تضيق وتتسع، وتتحول في حالات بعينها إلى نتاج السلطة المستبدة ظناً منها أن الثقافة حالة شمولية في الفكر والسياسة والحياة... وأن السياسي هو مرجع الثقافي.. وهذا خلط يُردّ عليه بأن الثقافة وعي على الحياة، وسلوك بحجم هذا الوعي الذي لا بد أن يكون إنسانياً، وملتزماً بالحرية والعدل والتقدم وكرامة الإنسان..

وفي هذا السياق تحضر أسئلة الثقافة في زمن «الخطابات» التي يقتطع كل منها مساحة من الفكر والإبداع والثقافة ليؤسس حالة خاصة به، فهناك خطاب «التراث»، وخطاب «الحداثة»، وخطاب «الهوية» وخطاب «الاستبداد»، وخطاب الإعلام.. مع أن سؤال التقدم واحد، وتحضر هذه كلّها في سياقه، كما أن سؤال الثقافة واحد مهما بدا في تفاصيله من حالات الاختلاف والتنوع، لأن الأصل فيه أن يقبل هذا الاختلاف وذاك التنوع ما دام الحديث عن مشروع قومي (عربي ـ إسلامي) هو الذي يشغل أهل الفكر والثقافة الذين يلتزمون بنهضة الأمة، ويؤسّسون مستقبلها على مركزية الحرية أولاً، مع إدراكهم العميق للدور الذي يتشكل من خلال مركزية العقيدة والتراث في المشروع كلّه.

إننا لا نريد استعادة محتويات ذاكرة نسقية تراثية تشبعت بآراء مجتمع سلطوي له في الظلم والاستبداد، والتشظي العرقي والطائفي مشاهد ووجود، بل نتوقع أن نفهم ـ في حالة الأمة ـ أن النسق يستحضر روح الرسالة الإنسانية، وعمق التأويلات الفكرية والفلسفية للحرية والعدل والحياة، وحضور العقل في رونقه واشتعال قلقه، دون أن يغيب عن البال أن هناك «ثقافة» مشوهة في ذهن «المستبد» يريد تسويقها بين الناس، بينما الزمن لا يقبل إلا ثقافة «الديموقراطي» الذي يعرف أن الفعل الثقافي ليس استعادة للأساطير والخرافات، ولا قبولاً لما هو قائم باعتباره نهائياً، بل هو في العمق الإنساني رفضٌ لكل ما ينافي حرية الإنسان، وعقله، وإنسانيته، وحقوقه، ذلك أن مصائر الناس رهن بإراداتهم وليست رجماً بالغيب في ذهن سياسي عاجز من فهم الحرية، أو متعلم ظن أن نهاية الأمر في بناء الحضارة هو بما في ذهنه من معلومات.

يدرك الذين يشغلهم حال الأمة ومشروعها في الحرية والتقدم أن المشهد مزدحم بإرث سياسي ثقافي متنوع وهائل، وفيه من الخير بمقدار ما فيه من الشر، ومن الجميل مثل ما فيه من القبيح، ومن السجون فوق ما به من المدارس، ومن الظلم مثل ما فيه من العدل ويزيد. ويدركون أيضاً أن ثنائيات حادّة ما تزال حاضرة تنبئ بالصراع الفكري وغير الفكري، ولها مروجون ودعاة يتعصبون لهذا الجانب أو ذاك، وإذا دققنا في المشهد لاحظنا كم من الكلام والورق أهدرنا في جدلنا العقيم حول القديم والجديد، والأصالة والمعاصرة، والإيمان والعلم، والقبيلة والدولة، والمثقف والسلطة، والإسلام والعروبة، والثابت والمتحول، والسلفيين والحداثيين، والتقليد والتنوير، والغرب والشرق، والمركزية التراثية والمركزية العربية؛ وغيرها مماً نظمه إبراهيم غلوم في مصفوفتين واحدة تراثية والثانية حداثية. (انظر كتابه: الثقافة وإنتاج الديموقراطية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ص 36 ـ 37).

عن مؤرخ المجاعات

ويدرك الملاحظ أيضا أن بحث أمر الثقافة والتقدم يقودنا حكماً إلى الاتجاهات الليبرالية العلمانية ذات الصلة بالمفاهيم البورجوازية العربية، وقد يتجه دعاة هذا الاتجاه قطرياً أو قومياً، ثم يأخذنا إلى الاتجاهات اليسارية ذات الوجه الماركسي في نشوئها وتحولاتها، وما وقع لأحلامها المثالية على امتداد العقدين الآخرين، ثم تلك الاتجاهات والتيارات التي تشكّل «المد» الإسلامي أو «الصحوة» كما تردد في أدبيات المرحلة، وما تفرّع عن ذلك من تنظيمات وأحزاب جهادية وتكفيرية؛ وانكشاف المشهد عن صراع جديد يشعل الاستعمار فتنه، ويمهد للاستفادة منه، ثم يتهم الإسلام بالإرهاب، مع أنه يبحث عن صورة لعدو ينفذ من خلال الصراع معه إلى المنطقة كلها، نفطها، وجغرافيتها وثقافتها، ودورها... وهذا سؤال جوهري في موقف الأمة الثقافي مما تتعرض له من تهميش وقهر واحتلال.

كأن علينا واجب «إغاثة الأمة في كشف الغمّة» وأصل النداء عنوان كتاب للمقريزي حول تاريخ المجاعات، وحال الأمة في زمانه، وفيه جرأة خاصة في تحديد أسباب البلاء والغلاء الذي أصاب الأمة في زمانه (كتب النص سنة 808هـ)، إذ رأى محن الغلاء تعود لآفات سماوية كقصور جري النيل، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره، وكذلك الجراد... ويتبع ذلك ولاية المناصب الدينية والخطط السلطانية بالرشوة، ثم غلاء الأطيان ورواج الفلوس...

ولست بصدد عرض الكتاب، لكننا رأينا مجاعات في زماننا هذا «والنفط فوق ظهورنا محمول»، ورأينا جميعاً كيف تجلس الأمة في مقاعد المتفرجين على حركة التاريخ وصناعته، وكيف نغرق في جدل عقيم حول قضايا صغيرة بينما الدنيا من حولنا بين طامع وحاقد وانتهازي وكاذب.

وأقول: إننا في زمان تبدو فيه الثقافة نائية عن مشهد الحياة التي نستحق أن تكون لنا كريمة وسمحة وعادلة، وتتقاسمنا تيارات في الفكر والسياسية: إسلامية معتدلة وأخرى متشددة، وقومية شمولية وأخرى تدّعي أنها ليبرالية، وتغريبية جاحدة تقلّب ذات اليسار وذات اليمين بين حول وآخر، ووطنية تغطّي إقليميتها بأردية إسلامية وعروبية حسب مقتضى الحال في الوطن العربي الإسلامي الكبير... وإلى جانب هذه التيارات الواضحة هناك تيار اللاأدرية النفعي الذي يظنّ صمته حكمة، وعزلته فلسفة، وهو من الأمرين بريء لأن «البراغماتية» التي تتقدم المشهد كلّه عولمة وتفكيكاً سوف تجرفهم في تيارها الصاخب للمشاركة في مشهد مفتعل باسم حقوق الإنسان والديموقراطية وغيرها من دعوات.

الجوعى والمحرومون هم اصحاب المصلحة

أعرف أنه ليس قدراً أن تبقى ثقافة الأمة في إطارها العام معلقة بين هوى شرقي وآخر غربي، وأن المضطهدين والمستضعفين النائمين جوعاً وقهراً في الفضاء العربي الإسلامي هم وحدهم أصحاب المصلحة في ثقافة مبصرة تقدم لهم رؤى حاسمة في الحرية والحق والعدل والتسامح، وهم الذين ينتظرون فضل الله العلي القدير في أن يمن عليهم بالحرية، لكن شرط الرضا غائب عنهم إن ظنوا أن صمتهم وسكونهم وموالاتهم للحاضر والثابت هو الذي يجعلهم مستحقين للحرية وللتحول نحو زمان جديد.

وأقول: يأتي سؤال هذه الندوة في زمن المدّ الإمبراطوري الأمريكي الذي يحمل معه ثقافة العنف والأرض اليباب، وكأن روما القديمة قد عادت كي تجعل البلدان ولايات تابعة لها، وحكامها قناصل في بلاطها ومجالسها؛ وكأن الذين يعلنون نهاية التاريخ كي يفسحوا الأمر للوحشية الرأسمالية، والذين يرون صراع الحضارات عند الحدود الدموية للإسلام (فوكاياما وهنتنغتون) لا يرون من الأمر إلاّ ما يراه المحافظون الجدد الذين شكّلوا إمبراطورية خاوية الروح، وعقيمة الثقافة في بعدها الإنساني، وعدمية التوجه نحو أهل الأرض كلّهم.

نقرأ هذا المشهد كلّه، ويجب أن لا تبقى فينا سذاجة فطرية، أو صمتٌ خائف ونحن نرقب الحالة العامة للأمة، فالأزمة قائمة، والجراح عميقة، والبلاء المنتشر ظاهر ومستتر، ومراكز الدراسات التي تتشكل مثل الفطر في أرضنا، ومعها بعض مؤسسات المجتمع التي تتلقى الدّعم من الخارج لها دور التفكيك الطائفي والعرقي والثقافي، كأننا ساحة للتنقيب عن الآثار، وعند كل نقش نقيم كياناً أو حزباً أو جماعة تعلن الاختلاف مع الأمة... وقد نسينا أن التاريخ استراتيجية، والثقافة رؤية،... وأنهما قاعدة المفهوم الموحّد للأمة، حتى لا تتشظى إلى وحدات عرقية وطائفية وإقليمية متناحرة.

اجعل حديثي هذا محصوراً في الملامح العامة لثقافة الأمة العربية في بعديها القومي والديني، وهو حديث قد يمتد بالضرورة إلى الأمة في إطارها الإسلامي، ولا أحاول تبسيط الأمر في خطبة أو مقالة، فنحن في زمن الفرقة والتشظي الذي جعلنا على مثل حالنا يوم انهار السدّ، أو يوم اجتاحنا المغول والصليبيون، ويوم وقعت تلك القواصم نهضنا بعدها، فهل نحن اليوم مثل أجدادنا فاعلون!!

ومثل الحديث لا يقبل جمود المنظر الأيديولوجي، ولا دور الداعية الملتزم بطائفة، ولا صوت المثقف الذي يملي علينا من داخل الكهف بعض ما ظلّ في أوراقه من كلام، وهو لا يرى النور الذي يغمر الدنيا يوم تطلّ الحرية كما تطلّ الشمس من خدر أمّها كل صباح جديد، فالأصل في الثقافة أن تكون تعليم الحرية للمضطهدين، والوقوف إلى جانب المستضعفين، وأن تعطي للأمة ملامحها التي تميّزها في عالم يضع الأقوياء الضعفاء من أهله في سياق القطيع الذي يملكون، أو القرية الكونية التي يدّعون، دون أن يظل لهم ـ أي الضعفاء ـ إرادة، أو وجه ثقافي متميز، أو حق في الرفض والاحتجاج والثورة.

لقد تميّزت ثقافة الأمة يوم صعدت اللغة إلى ذروة إبداعها الشعري في الجاهلية، ويوم أطل الإسلام على الدنيا بالآية الأولى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، ويوم قرأ أهلنا الأوائل في كتاب الله معنى أن تكون القراءة باسم الله، ومعنى أن تكون مسؤولية: «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا».

إن الثقافة التي يدور الجدل اليوم حولها واقفة ـ كما هم أهلها من النخبة ـ عند أبواب أربعة، تلفّهم الحيرة ويذبحهم التردد؛ باب الله الذين قرأوا كتابهم باسمه سبحانه، وباب السلطان الذي يظن أنه أبو جعفر المنصور يوم نادى في الناس: «أيّها الناس إنّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده...»، وباب الشعب الذي هو وارث الأرض والحياة عليها، وصاحب الحق في ثرواتها وثوراتها، وباب الحلم الذي يقود إلى الانكفاء أو الإبداع، وعند هذه الحالة تبدو القراءة حرثاً في بحر واسع متلاطم، وتبدو مصطلحات الإقليمي، والعرقي، والطائفي أمراً مرعباً في ليل البحث الطويل عن أفق مختلف وبهي وجميل.

لقد تطرق مثقفون متميزون لأبعاد القضية الثقافية عند العرب والمسلمين، ولا يسمح المجال هنا بعرض تفصيلي لآرائهم، لكنني أكتفي بالإشارة إلى بعضهم، وباقتباس مهم من واحد منهم حول مواجهة الأمة للتحدي الحضاري الذي يجتاح العالم كلّه.

يقول أحمد بهاء الدين:

«... إن لنا في أرضنا جذوراً ضاربة إلى أعماق بعيدة جداً من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات، والتقاليد.

هذه الجذور الضاربة إلى أعماق بعيدة في أرضنا قد طال بها الجفاف، لم تشرق عليها الشمس ولم يرُو عطشها منذ أزمان وأزمان. لا شيء يجعل هذا كلّه يورق من جديد إلاّ تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد، فيتجدد شباب الشجرة الوارفة كلّها. تسقط منه الأوراق الميتة التي علقت بجوهر تراثنا في عصور الاضمحلال والظلام. وتزهر الغصون والأوراق الأصيلة المليئة بالحياة...».

إضاءة (2) ـ مصادر الثقافة العربية الإسلامية

تحمل الأمة في سياق بحثها عن الذات علامات واضحة في تشكلها الثقافي والحضاري، منذ أن بدت بوادر الوعي في أشكالها القبلية والإبداعية حول مراكزها ودولها في الزمن الجاهلي، ولست هنا بصدد البحث في تلك العناصر الأولى في الإحساس بالذات والتميّز في صورة شعب أو أمة، لكنّ ما هو جدير بالقراءة هو تلك القيم التي تشكلت لدى عرب الجزيرة الأوائل، ثم وجدت طريقها إلى الناس، وفيها شجاعتهم ومروءتهم وكرمهم، وحميّتهم، واحترامهم للذات، وحرصهم على كراماتهم، حتى إذا جاء البعث الإسلامي وجدوا أنفسهم أمام أفق يمتد إلى آخر حدود الدنيا والحلم معاً، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وحين استكملوا التغيّر الإيجابي في أرواحهم انطلقوا على خيلهم نفسها التي أصغت للنداء الجديد «إذا قيل خيل الله يوماً ألا اركبي»، فحملوا للعالم رسالتهم في مستوياتها الإلهية، والمعرفية، والاجتماعية؛ رسالتهم التي تبجّل العقل، وتضيء الوجدان، وتنشر العدل والمساواة بين الناس، وتحمل تميزاً خاصاً بهم، وهي أنهم يتحدثون بها للناس كافة، وأنهم مستعدون للشهادة باسم الله وفي سبيله... وحين وجدوا الأمر قد استقر لهم، لم يغلقوا ثقافتهم ومعارفهم في وجه العالم الجديد الذي اختلطوا بأهله، بل قبلوا التنوع والاختلاف، وقرأوا كتب الأمم السابقة والمعاصرة، حتى صارت بغداد وقرطبة مدينتين عالميتين في الفكر والسياسة والإبداع؛ وبدت اليوم إنجازات ذلك الزمان مرجعية إنسانية (بسائر تجلياتها) لفهم موقف الأمة من الحرية والسياسة والاستبداد، وهذا هو الذي يحتاج قراءة جديدة بفكر تحليلي لا على طريقة الوعاظ الذين التزموا بالسلطة ونأوا بأنفسهم عن التحريض والتجديد والتنوير.

ومصادر الثقافة هي في هذا كلّه، أعني الدّم الذي أرقناه عبر قرون طويلة، والحبر الذي شكلنا منه أمة المعرفة الحيّة، والمخطوطات التي نشرت أو ما تزال بانتظار الشمس أن تزور خزائنها وكهوفها، ففي هذا كلّه (الفلسفة والعلم والسياسة والأدب) إشراقة العروبة الحقيقية في إطار الإسلام العظيم. وهذا كلّه هو الذي شكّل الهوية العامة للأمة، وجعلها في موقع فكري متقدم، هذا الموقع الذي دمّر المغول مرّة والقشتاليين ثانية، والأمريكان ثالثة، وهو نفسه الذي نتحصّن فيه حين ننكفئ على أنفسنا بانتظار نهوضنا لرد عدو، أو ردع طامع، أو بناء ما تهدم فينا من جديد. وكم تبدو صورة الهوية الواسعة حاضرة يوم تصدّت الأمة لحملات الصليبيين، فقاتلت بسائر أعراقها وأديانها ضد ذاك الغزو حتى ردّته، وما ضرّها أن قائد حطين العظيم كردي، وقائد عين جالوت (ضد المغول) مملوكي، ودار ابن لقمان التي أسر فيها لويس التاسع عربي مصري...

لقد احتضنت شعوب كثيرة الإسلام، فصار دينها وحضارتها وثقافتها، وصارت حروف العربية حروف لغة بعضهم، وفي هذا الوعاء الإنساني تم صهر العناصر كلّها، وظلّ لكلّ خصوصية لا تتناقض مع الحدود العليا لدينه وثقافته الجديدة، ولم يكن مطلوباً، على الرغم من الحالة الشعوبية، أن تستأصل فئة من المتحكمين غيرها، فقد اتسعت الدولة حتى عجز سيف الظلم أو الاحتلال عن القضاء على الأمة، ولم يتنكر العربي لشريكه في الرسالة والحضارة، ولم يغضب إلاّ قليلون لتراجع العرب عن مراكز السلطة السياسية، ونفهم تماماً لماذا صاح المتنبي «وسوى الروم خلف ظهرك روم»، و«ولا تصلح عرب ملوكها عجم»؟

ومصادر الثقافة في الأمة أيضاً قومية؛ والقوميات التي تشكل حضوراً باهراً في أمتنا معروفة، وما من حاجة هنا لإعادة الأدوار العظيمة لأبناء هذه القوميات في عصورنا السالفة أو عصرنا الحاضر في رفعة الإسلام؛ وقد تجاور الفارابي وابن سينا والجاحظ والغزالي والمتنبي وأبو نواس والشافعي وآلاف الكتاب والمؤرخين والفقهاء والمحدثين، حتى استقام لأمتهم حضور في المشهد العالمي... وأطلّ ابن رشد على الدنيا التي كانت غارقة في جهلها (أوروبا كما وصفها المقدسي وابن فضلان) فأضاء عتمها. وأخفق الصليبيون في حملاتهم المتواصلة لأن ميزان الثقافة الإنسانية والفكر والفلسفة كانت لصالح أمتنا وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ مشاهد جميلة لتفوق ثقافتنا التي عززت صمود أرواحنا وعسكرنا حتى طردناهم في زمن الأيوبيين، ثم في زمن المماليك، لأنهم لم يأتوا إلا بفضل الشجاعة (وهي كما يقول ابن منقذ موجودة في البهائم).

ومن مصادرها القومية ما حملته لغات الأقوام من فكر وفلسفة وفنون وآداب قبل دخولهم في الإسلام وبعده، فقد سقينا في العباسي شجرة الثقافة الإنسانية إغريقية وهندية وفارسية وتركية وكردية، ثم زرعنا بستاننا بتنوع يشبه شعب بوآن الذي كان ـ كما كنا ـ بمنزلة الربيع من الزمان.

ومن مصادر الثقافة في الأمة هذا الموروث الهائل من آثار الدول التي كانت، ومن إنجازاتها الثقافية، امتداداً إلى أساطيرها وحروبها وخرافاتها، وعمرانها، وتبدو البتراء (مدينة الأنباط)، وتدمر، وآثار الأراميين، والحثّيين والفينيقيين، والسومريين، ومصر القديمة، واليمن العتيق، حاسمة في التشكل الأول على الأرض العربية، ومثل ذلك موجود على المدى الإسلامي، وهناك حقائق أكثر نصوعاً في الموروث القومي العربي السابق على الإسلام في صورة المناذرة، والغساسنة والأنباط وتدمر، ودول سبأ ومعين وحمير وغيرها، وما نزال في الأردن نقرأ حسّان بن ثابت وهو يمرّ بالأردن وينشد عند بيت راس، عن أبناء جفنة الذين يسقون «ورد البريص»، وبردى «يصفّق بالرحيق السلسل».

ومن مصادر هذه الثقافة الأولى تاريخ الصراع مع أمم غازية أقامت في بلاد الأمة، ودول جوار قامت بيننا وبينها صدامات، وأخرى (أوروبا) ظلّ الأمر سجالاً وهي تطلّ علينا من وراء أسوار القسطنطينية ونحن نحاصرها، ومن صقلية، وجنوبي أوروبا كلّه، ومن جبال البيرنية، ثم تعود لنا في صورتها الصليبية، ويبلغ الصراع ذروته حول أسوار عكا يوم أخرجناهم، وحول أسوار القسطنطينية وجنود الإسلام يحققون انتصارهم التاريخي، وعلى بوابات غرناطة وصخرة أبي عبد الله الخارج مهزوماً من زمن الأندلس الجميل، لقد قام الصراع مع الروم وفارس ثم مع أوروبا، إلى امتداده ما وراء النهر وفي سهوب آسيا حتى تحقق حلم دول قامت باسم الإسلام، وحين هزم ساستها لم تهزم أرواح مساجدها ولا رسالتها، فامتدت بغير فتح لأن لها ثقافة إنسانية تشكل منظومة قابلة للتقدم والحياة.

ومن مصادر هذه الثقافة أن أرض الرسالات والفتح كانت قريبة من الأديان السماوية، وحين هزمت الوثنية وأشرقت رسالة الإسلام، ظل أهل الديانات الأخرى حاضرين في الدولة، وما من أحد يحتاج إلى شهادة في التسامح القومي والديني أبعد مما فعل المسلمون والعرب.

إن هذا التشكل الجميل هو الذي يغري الباحث بإضاءة نموذج واحد معاصر من وطنه الأردن، فعلى أرض هذا الوطن صورة للتسامح الإنساني الرفيع، فالأردن دولة عربية إسلامية في إطارها الدستوري، لكن مصادر الثقافة فيه متعددة، فهو وارث آثار الرومان المعروفة بما تمثله من تذكر لإمبراطورية قلّصها الإسلام ثم حطّم جزءها الشرقي، وهو وارث تاريخ الهجرات العربية الأولى إلى هذا الجزء من بلاد الشام، وفيه الحضور المؤابي والأدومي والعموني والنبطي، وهو موطن سابق للغساسنة الذين تنصّروا، وقد ظل على أرضه من يمدّ نسبه إليهم، وفيه من زمن الفتح أضرحة شهداء مؤتة، وأضرحة صحابة قاتلوا على أرضه من معاذ بن جبل إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح. وفيه من زمن الإسلام الأول مكان التحكيم في أذرح، وفيه من بني أمية قصورهم وروافد جيشهم بالقادة والفرسان، ومن بني العباّس الحميمة، وطلائع الثورة، ومن بني أيوب تحريرهم لأرضه، من المماليك امتدادهم وإنجازاتهم ومن بني عثمان قلاعهم وبقايا من لغتهم، وهو عن الأرض التي حول الأقصى، وعلى أرضه وأرض بلاد الشام كلها دارت معارك فاصلة في التاريخ: اليرموك، وأجنادين، وحطين، وعين جالوت، وفي الزمن المعاصر شهد يقظة العرب وثورتهم على التتريك، وحضر حروب الأمة في سبيل فلسطين. وفيه تعددية تلفت النظر:

ـ قبائل عربية ممتدة من زمن الجاهلية، حضرٌ وبدو؛ وبينها غالبية مسلمة وأقلية مسيحية.

ـ مهاجرون مسلمون من بلاد القفقاس في أواخر القرن التاسع عشر بعد القهر والقمع القيصري، وهم الشركس والشيشان.

ـ مهاجرون أرمن (مسيحيون) في أوائل القرن العشرين بعد الصراع العنيف مع الأتراك في الحرب العالمية الأولى.

ـ عناصر من الدروز الذين وصلوا بعد تراجع ثورة سورية الكبرى (1925 ـ 1927) وقائدها سلطان الأطرش إلى الأردن.

ـ فلسطينيون ألقى بهم المصير الصعب لاجئين بعد حروب 1948 و1967.

ـ عراقيون بعد الحصار وسقوط بغداد والخراب الذي صنعة الأمريكان.

ـ الشوام، التجار الذين قدموا من الشام منذ زمن بعيد واستقروا في الأردن.

ـ أكراد، وأتراك، ومغاربة، وحجازيون، ويمنيون.

كلّ هذه العناصر تشكل مجتمعاً فيه مؤاخاة وتسامح، وثقافات قومية ودينية ووطنية، وكلّ هذا يدفعني من موقع من عايش الحالة خمسين سنة إلى حلم بثقافة للأمة فيها تسامح ورفعة وقدرة على استيعاب العناصر كلها، لأن أي انغلاق وعزلة يعني موت الحضارة والثقافة والحياة.

إضاءة (3) . تجليات الحالة

وفي باب الحديث عن ثقافة الأمة عبر تاريخها قبل البعثة وبعدها تبدو الصورة وفي بؤرتها اللغة العربية التي حملت الحرية والمروءة، ثم كُرّمت حين صارت لغة القرآن إعجازاً ورسالة، ولغة أهل البلاد الذين دخلوا في دين الله في المدى البعيد في الجغرافية، من حدود الصين إلى جبال غفت عندها أرواح فرسان معركة بلاط الشهداء في بدايات القرن الثاني الهجري وتقف شاهدة، تؤذن في الغرب بالحرية والتسامح والفكر الحرّ وتقيم هناك على مدى قرون ثمانية وضعت نهايتها يوم استشهاد موسى بن أبي الغسان على باب غرناطة في ساعتها الأخيرة، حداً لما سماّه تشومكي (العام 501 ـ الغزو مستمر، ترجمة: مي النبهان، دار المدى، دمشق، 1996، ص13) ثقافة التسامح الإنساني الإسلامي، وأشرعت الأفق لثقافة الاستعمار الغربي في العنف والوحشية والعنصرية، من أواسط أفريقيا إلى قلب أمريكا اللاتينية أو الوسطى، مروراً بآسيا كلّها عربية ومسلمة ووثنية.

العربية أمنا

إنّها العربية، أمنّا، وشجرة حريتنا، وإعجاز بياننا، إنها كما النخلة عند العرب عمّة العرب، فالعربية أمّهم، وأي تفسير لظاهرة الحضارة العربية الإسلامية يجد نفسه مجافياً للحقيقة إن حضرت له فكرة قبول العامية، أو فصل الإسلام عن الثقافة العربية، فالمنظومة الثقافية التي أنتجتها الحضارة العربية الإسلامية في السياق العقلي (فلسفة وحواراً) وفي السياق الفني (شعراً ونثراً)، وفي السياق النضالي (مقاومة ودفاعاً عن الوطن والأمة) تشكل هوية الأمة خارج تشظي السلطة السياسية الإسلامية إمارات، ودول طوائف، وخارج الخلايا التي ماتت وأصابت الجسد الواحد بالضعف والوهن.. إنّنا نرصد الحالات الإسلامية الأولى فنراها بعثاً وفتحاً، والحالة الأموية، دولةً عربية فتية غالبة، والحالة العباسية عولمة وتنوعاً وحرية وقرامطة وحشاشين، وإبداعاً فنياً رفيعاً، وتفكّكاً في زمن لاحق، ونقرأ تجليات المشروع الأندلسي باعتباره صورة خاصة لما يمكن أن تكون عليه الأمة حين تنتصر للعقل، وتفتح نوافذها على العالم سماحة، وعلماً، وإبداعاً رفيعا ويقظة للشهادة إن تعرضت للغزو، وكم دافعت الأندلس، على ضعفها، عن حضورها ورسالتها، ولا أظن أن أرواح المقاتلين بعيدة عن أرواح الذين صدّوا الصليبيين والمغول، فالنضال دوائر في سياق روح شاملة تشكلت منها الأمة بسائر العناصر التي دخلت في الإسلام، وأغنت مسيرته بالفرسان والثقافات الجديدة، والفكر الذي حمله هؤلاء معهم يوم انخرطوا في مسيرة الأمة دون إحساس بالضيق أو بتفوق العنصر العربي عليهم، ولا أظن أبا الطيّب المتنبي قد ضيّع حسّه القومي يوم نادى على سيف الدولة الفتى العربي المدافع عن شرف الأمة بعد معركة الحدث:

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

هنيئاً لضرب الهام والمجد و العلى وراجيك و الإسلام أنّك سالم

لقد كان المتنبي عند حدود الإسلام نفسه وليس عند حدود المذهب الديني الذي أنتجته ظروف اجتماعية، وأسست له حركة سياسية معقدة، وفتن وتحولات صعبة شكلت مصائر الناس ومستقبلهم لقرون طويلة في سياق المنظومة العامة نفسها، وفي أطرها المادية والاجتماعية والفكرية. وليس الحديث في هذا الباب عن الصلة بين الثقافة القومية والثقافة الدينية بمنأى عن أسئلة تفصيلية، فقد يرى قارئ متميز أن الواقع الإسلامي يتشكل من قوميات إلى جانب العربية، ولها موروثاتها الثقافية، كما يتشكل من طوائف دينية إسلامية وغير إسلامية، فهل يمكن أن يقع الانصهار كي يعبّر كل عن ثقافته بحرية في مجتمع تتبادل عناصره الاعتراف بخصوصياتها، في مناخ تصبح الثقافة فيه محركاً للديموقراطية، وصورة عن التسامح في قبول التعددية والاختلاف، ومن هذا المجتمع المستقر تشكل رؤية العلاقة بالآخر (الخارجي) على قواعد المساواة والعدل والاحترام.

الجواب: إن هذا ممكن، والنموذجان العباّسي والأندلسي حاضران في الذاكرة، وشرط هذا كلّه مجتمعات يتوافر لها أمران أساسيان عند المستوى المعرفي الأعلى وهما: الحرية والوعي، وبغيرهما لا يمكن أن نتحدث عن مجتمعات تسودها الديموقراطية والتعددية والعدل والتسامح، ولا أظن أن إحساساً قد يساور الذين يتمتعون بالحرية والوعي بأنهم مظلومون ما دامت فرص الحياة الكريمة قائمة في سياق أمة واحدة؛ والأمة هنا حاضرةٌ في الروح العامة، وإنْ بدت مقسمة شعوبها بين خمسين كياناً سياسياً ويزيد، وإذا تراجع هذا الإحساس خسرنا الرهان على الحلم بزمان تنطبق فيه حدود الأمة على حدود دولتها، مهما كان الشكل المقترح لاجتماعها أو وحدتها أو ترابطها في كيان سياسي، إلى جانب ما في العالم من كيانات لأمم كما في الصين والهند وغيرهما.

يظل البحث في الموضوع الثقافي منصباً على العناصر العامة في ثقافة الأمة، والتي أرى أن لا فصل فيها بين روح الإسلام وروح العروبة، وقد أخفقت الأشكال العلمانية الهجينة، والشموليات القومية، والتشدد اليساري في إعادة الإسلام إلى الزوايا الصوفية باعتباره شريعة لأهله وليس رسالة للناس كافة تخرج بهم من الظلمات إلى النور، وتعلمهم معنى الحرية والتسامح والعدل وكرامة الإنسان، وتفتح لهم الآفاق على حوار ثقافي يستند إلى فهم عميق لما يجري في العالم من صراع أراه قائما بين طرفين، نمثل نحن الأول فيهما؛ وهو المستضعف والمقهور والمغلوب، ويمثل الآخر المستعمر القهر والعنف والهيمنة، وإن ادّعى غير ذلك.

* اكاديمي وباحث اردني